الرسام

حسين بدوي

عرض وتحليل

لمحمد فهمي

أتيح لي ان اكون في « باريس » في شهر اغسطس من هذا العام (١٩٣٨) حين افتتح الفنان «حسين بدوي» معرض رسومه بالمكتب المصري للسياحة بالشانزليزيه تحت رعاية معالي فخري باشا وزير مصر المفوض والمسيو بيتري رئيس جماعة «فرنسا — مصر» فأمكنني ان اشاهد عن كثب تقدير رجال الفن وكبار المثقفين لفن من فرنسيين وأجانب لرسوم هذا الفنان وطابعه المتميز بقوة الشخصية وعمق الفكرة وما له من قدرة على توزيع اللون وتحليله الى درجات متعددة لكل درجة تعبيرها الخاص وكأنما يخاطب روحك بلغة من الالوان معبراً عن فكرة منتزعة من اعماق نفسه لا تلبث ان تحسها تتغلغل في اطواء نفسك وإذا بك امام لوحاته تحس وترى وتسمع ! واذا بالذي أمامك ليس بمعرض رسوم بل معرض حياة !

يرتكز فن بدوي على دعائم ثلاث : الفكرة . طريقة التعبير . اللون . كل منها تشعرك بوجودها في قوة ووضوح كأنما حاول احتذاءك اليها خاصة ولكنها جميعاً تحقق «الكل» المتسق في الانسجام التام

﴿ الفكرة ﴾ — فالفكرة هي الاساس الذي تحكم به عن مدى عمق الفنان واتساع رحاب روحه ، ومقدار ثروته من الاحساس التي وقدرته على التعبير عن سرائر الموضوع الذي يعرض له حتى يحقق منه عالماً حافلاً بجميع خصائص العالم الحي من ظواهر وامرار !

وان الفكرة لتتبع في اعماق نفسه ثم تنمو حتى تملأ جوانب نفسه وكيانها فتخرج للوجود وقد حملت كل ما في نفسه من خصائص : قوة شخصية وعمق واتساع !

وهنا يحق لنا ان نقف قليلاً ثم نطوي البصر الفكري راجعين قرناً او يزيد لنتخلص الى طفولة بدوي ونشأته حيث نتأمل خصائص المحيط الذي في جوفه نبتت « الفكرة » أول ما نبتت في شكلها البدائي وهي في طريقها الى الكمال الانساني الخالق . فنشهد هذا اللاشعور حيث استقرت في أعماقه الخصائص الوراثية وانطبعت في حناياه صور البيئة . نشهد الذكريات التي أثرت فيه بل حيث مصدر جميع الانفعالات والمشاعر الفائضة التي يعانيها الفنان « في

عقده الباطن » فيحاول الافصاح عنها بأسلوبه الخاص وطريقته في التعبير وبلغته حيث المادة الخام التي يصوغ بها الفنان فنه !

فبدوي نشأ نشأة مصرية بحتة في ريف مصر وبين حقولها الخضراء الباسمة دائماً ونشأ والصفاء الواجمة في الصيف ثم تغذى بتاريخ مصر منذ عهد الفراعين ولمس بروحه روح الفن الفرعوني ووعى جمال الفن الاسلامي ثم هو بحكم نشأته العائلية مؤمن عميق الايمان فيه طهارة المؤمن وصفاء قلبه ونقاءه ! ثم تمثل تقاليد هذا الشعب الموروثة وحياته الحافلة بالآلام والمسرات والاحلام

هذه الخصائص متغلغلة في اعماق نفس بدوي مضافاً اليها مزاجه الخاص وطابعه المتفرد والغموض الذي كانما يشير الى مجاهل وخبوءات في اعماق روحه لايفتأ اليها النور يموج بالانفعالات الغامضة والاشباح والاطياف ! فمن هذه جميعاً تمتزجة متفاعلة تتكون طبيعة الفكرة عند بدوي الفنان ! وهي اما رمزية واما سيكولوجية واما تصويرية

ففي بعض لوحاته يطوح بك في تيه لا حدود له فيقودك الى مجاهل التاريخ حيث الانسان في حالته البدائية وقد صوره في لوحة « رقصة الكهف » وهو في حالة من النشوة الوحشية (Primitive) يتقرفل اثنان منه ساذج مستقيم الاضلاع (اذ لم يكن قد توصل الانسان بعد الى الدف المستدير !) ورفيقه تشاركه نشوته وهما يرقصان امام باب كهفهما المظلم الرهيب وكأن الاثنين اشباح تبدو في ظلام الدهور ! . وتارة يدخل بك الى هياكل الفراعنة كلوحتيه « السائل المقدس » و « حارسة المقبرة » فتستشعر تلك الروعة الرهيبة التي خلعها الفراعين على معابدهم ومقابرهم وهي المنبثقة من اعماق روح مصر المفعمة بالقداسة وجلال الايمان . فترى في اللوحة الاولى « السائل المقدس » فتى المعبد في وقار وروعة وهو يصب لفتاة من الشعب الماء المقدس فتتلقاه في إناء بلهفة وخشوع تستشف خلالها لذة ذلك الايمان العجيب !

وأما « حارسة المقبرة » فتبدو في الظلام وقد أمسكها عناء الوقوف فارتكزت برأسها فوق يديها المتشابكتين على قمة عصاها وأسندت ظهرها واحدى رجليها المهكتين الى احد الاعمدة الضخمة المجنسة المنيرة وسط ظلام مخيم . في حد الجو الرهيب عبقاً الاعتقاد فيك ان هناك مقبرة حقاً وان بها ميتاً مدفوناً حقاً وان هذه حارسة مهكة حقاً

وانطابع الرمزي الغريب يبلغ القمة في لوحته « نهايتها الاخيرة » و « الامومة » والاولى اقتباس فكري بحت ولوحات بدوي تبين لنا ناحية التجوش في نفسه ونزوعه الى مجاهل التطور في حياة البشرية وارتياد حقب التاريخ وكأن بدوي لا يعبر عن عواطفه ومشاعره المشجرة في محيط عقله الباطن فحسب بل عن مشاعر شعب بأسره بل الانسانية جميعاً ! وهنا يحق لنا ان نقول ان بدوي صاحب مذهب رمزي في الفن وهذا أمر طبيعي في هذه الفترة التي نجتازها من

سلسلة تطورنا الاجتماعي والثقافي وانهُ بعد ان لاحت هذه الظاهرة الرمزية والميثولوجية في انتاجنا الادبي الرفيع من شعر ونثر « أنظر مفرق الطريق لبشر فارس وشهر زاد وأهل الكهف لتوفيق الحكيم وعلى هامش السيرة لطه حسين وشعر بعض شعراء المدرسة الحديثة » ثم كان من الطبيعي حينئذ ان يظهر صاحب هذه الطريقة في الفن ومن ير لوحات بدوي يحكم انهُ صاحبها

وبدوي حين يفكر في محاكاة الطبيعة سواء الحية او الصامتة يحاول دائماً ان يتحداها فينفخ فيها من روحه ما يهبها النبض والحياة فترى اللوحة وقد خرجت من بين يديه تحمل من خصائص بدوي ما يزاحم خصائص الاصل الذي تعبر عنهُ وكأن هناك تنافساً بين شخصيتين قويتين : بدوي والطبيعة . ولكنهُ في النهاية لا يخضع الا لنفسه ا فترى طيف رمزيته يلوح على درجات مختلفة من الوضوح والتستر حسب قابلية الموضوع الذي يعرض لهُ . ومن هنا كانت طبيعة بدوي لا تشق « والبورتريه » أي تصوير الاشخاص وقد أخبرني انهُ لا يميل اليه كثيراً وان كان أحياناً يلجأ اليه ليسكب عليه من روحه وفنه وفي هذه الحالة يبلغ الغاية من الاجادة ومن ذلك لوحة « بنت الجيران » اقتناها سري باشا ولوحة فذة تسمى « عذيلة » أطلقت عليها صالونات القاهرة « الجيوكوندا المصرية » وهي لدى مدام سامي باشا

﴿ طريقة التعبير ﴾ — لعل طريقة التعبير في فن بدوي هي أنسب أسلوب للتعبير عن أفكاره . أو قل ان هذا الاسلوب وليد تلكم الافكار، وبدوي في طريقته هذه لا يتأثر بأي مدرسة من مدارس الفنون أو أية شخصية من رجال الفن فكما ان فكرته وليدة طبعه وخصائص نفسه فكذلك أسلوبه ليس الا نتيجة طبيعية للجو النفساني الذي يحيا فيه بل هو النتيجة الحتمية لانبعاثات روحه وهواجس فؤاده. على انك واجد بينهُ وبين رامبرانت شبهاً غير قليل في ظلاله وعتمه ا فهو إما حابس كالطبيعة الغاضبة وإما كئيب كأحزان الغروب. ويبدو أسلوب بدوي كأنهُ ثوب مفصّل تماماً لأدق المقاييس ملاءمة للفكر دوابراز ما فيها من جمال وسحر ا كل شيء فيه جديد مبتكر وكل ذرة فيها حية نابضة ومجموعه الشكلي يتميز بطابع الاستقلال والطرافة وكأنهُ يقول في كل ذرة من أجزائه « أنا شيء جديد » وهذه الظاهرة لاحظها ناقدو الفن الفرنسيين فأشاروا اليها في جرائدهم

فاذا اراد ان يعبر للشمس « الغروب » مثلاً كانت فتاة ريفية للعرد حاملة على رأسها أناء كبيراً وهي في ثوبها ومشيتها وحزمات الضوء المتساقطة على اللوحة هنا وهناك باحكام عجيب وقد شمرت الفتاة عن ساقيها تخوض في أرض تغطيها المياه فتكاد تلمس ما تعانيه وهي تنقل خطواتها في جهد واعياء وتحس اللهفة والشوق في اندفاع الفتاة والحركة التي تكاد تهز اللوحة من . كل هذه التعبيرات تملك عليك نفسك فلا تملك الا ان تهتف « حقاً انها العودة ا »

ولبدوي طابع في تعبيره يتناسب ورمزيته فهو لا يبرز لك تفاصيل الاشخاص بدقائقها

واضحة جلية بل على قدر ما تعبر به عن المعاني والانفعالات في الجو الذي يخلعهُ على اللوحة كأنما ينقلك من عالم الحس الى عالم التخيُّلات والاسرار فتشارك الفنان في احساسه وشعوره بل كأنك تعيش معه في عالمه

﴿ طريقته المبتكرة ﴾ — توصل بدوي الى ان يخط على لوحة « الاكواريل » الماء المثبت ظلالاً واضواء هي غاية في الاتقان بأسلحة مدية الاسنة فترى الظلال والاضواء تموج امامك في اللوحة وكأنها ظلال من الطبيعة نفسها تبدو مهيبة رائعة !

هذه الطريقة تتطلب صبراً طويلاً واناة ومهارة لا يطيقها الاَّ من وهب نفسه للفن ؛ ولاشك ان الكثيرين سيحتذون هذه الطريقة الجديدة والاستعانة بها مع « الترشاة » على رسم الظلال والاضواء على انني اشك في ان احداً يستطيع البلوغ بها مبلغ بدوي من القدرة والاعجاب. وذلك لانها لا تصلح الاَّ لفنان له طابع بدوي ذلك الطابع القائم في اغلب لوحاته . فترى الاشخاص والمرئيات تبدو امامك رهيبة لانها تبدو من الظلام وتخطو في الظلام توضحها حزمات من الضوء يسقطها الفنان من كوّة روحه البعيدة الاغوار فلا يتجلى الظلام تماماً. ولكن تستطيع ان تتبين ما فيه من اشباح واشخاص. في مثل هذه اللوحات القائمة يمكن استعمال الاسلحة المدية اي طريقة بدوي في كشف الاضواء والاظلال على اللوحة بشرط ان يكون الفنان متمكناً من طريقته حاذقاً لها

﴿ اللون ﴾ هذه السهل التوحي في فن بدوي على ان هذه السهولة نتيجة البساطة والاقتصار غالباً على لون واحد . ولكن المهارة والقدرة على تحليل اللون الى درجات عدة تجعلك حائراً امام تلك المجموعة العجيبة المتناسقة من الالوان، وما هي في الواقع الاَّ لون واحد تناولتهُ يد بدوي ومقدرته فكان ما تراه

هذه القدرة على تحليل اللون تضفي على لوحاته طابعاً من البساطة والتعقيد معاً ولكنها البساطة الفطرية والتعقيد الفذيذ ثم هي تهيء له ان يحوِّم بأشباحه واشخاصه في عوالمها المجهولة او المعلومة في غير ما جلبة ولا صخب من تطاحن الالوان وتضاربها. وبذلك يستطيع ان يخلق الجو الملائم كل الملاءمة للانفعالات والمشاعر التي يريد التعبير عنها فتنطق بها وجوه اشخاصه

« وكأن كل قسمة من قسمات الوجه تتحدث عما يشتجر في حنايا الصدر وآفاق الفؤاد من احاسيس وعواطف . وقد كنت أود ان أتناول مجموعة من لوحات هذا الفنان بالتحليل والشرح ولكنني جبنت أردت ان أعرض لهذا وجدت ان المجال لا يتسع الآن . وأملي ان يتاح لي تحقيق هذه الرغبة او يتقدم بها غيري ممن ذاقوا فن بدوي ولمسوا روحه في انتاجه الفني وهذه خدمة غير قليلة للفن الجميل